

## وباء الكوليرا في الجزائر أثناء بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي، دراسة تحليلية للوّاقع الصحي والديموغرافي عام (1831م-1871م)

Cholera epidemic in Algeria during the beginning of the French  
occupation phase, an analytical study of the health and demographic  
reality in the year (1831 AD - 1871 AD)

عمر جبري

جامعة محمد الأمين دباغين، سطيف 2 (الجزائر)، amardjebri@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/10/30

تاريخ القبول: 2020/10/20

تاريخ الاستلام: 2020/06/18

ملخص:

يعتبر وباء الكوليرا واحدا من بين أهم وأخطر الأمراض والأوبئة التي مست الجزائر خلال بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي، هذا ما أحدث "مجاعة ديمغرافية" (DEMOGRAPHIC FAMINE) حقيقية بسبب انتشاره السريع وحجم الأضرار والخسائر التي أحدثها، ويعد القرن الثامن عشر للميلاد فترة لتأصل وتجذر وباء الكوليرا (Cholera epidemic) في مناطق عديدة من الجزائر. غير أن هذا الوباء قد عرف خمودا تدريجيا ونسبيا بسبب إجراءات الحجر الصحي المفروضة من طرف السلطات الاستعمارية على المستوطنين في الجزائر، فقد مس الحجر الصحي كامل السفن التجارية القادمة من أوروبا، لكن هذا لم يمنع من تسبب هذا الوباء في تراجع ديمغرافي رهيب وانهيار المنظومة الصحية للمجتمع الجزائري. الإشكالية المطروحة في هذا السياق التاريخي هي: ما هو مرض الكوليرا؟ وما خصائصه؟ وما مصادره وطرق انتقاله؟ وما هي الإجراءات الصحية المتخذة لمواجهة من طرف الإدارة الصحية الفرنسية في الجزائر؟ وما مدى تأثر الواقع الصحي والديمغرافي في الجزائر بهذا الوباء الفتاك خلال بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي (1831م-1871م)؟.

كلمات مفتاحية: الوباء-الكوليرا-الجزائر-الاحتلال الفرنسي-المجاعة الديمغرافية.

**Abstract:**

The cholera epidemic is considered one of the most important and most dangerous diseases and epidemics that affected Algeria during the beginning of the French occupation phase.(Cholera epidemic) in many regions of Algeria.

However, this epidemic has known a gradual and relative subsidence due to the quarantine measures imposed by the colonial authorities on the settlers in Algeria.

The problem posed in this historical context is: What is cholera? And what are its properties? What are its sources and methods of transmission? What are the health measures taken to confront it by the French health administration in Algeria? And to what extent was the health and demographic reality in Algeria affected by this deadly epidemic during the beginning of the French occupation period (1831-1871AD)?.

**Key words:** The epidemic - cholera - Algeria - the French occupation - demographic famine.

مقدمة:

يبحث موضوع وباء الكوليرا في الجزائر خلال بداية مرحلة لاحتلال الفرنسي عن تشخيص الحالة الصحية في الجزائر خلال تلك الفترة وتأثير وباء الكوليرا على الحالة الديمغرافية والاجتماعية أيضا، حيث عانت المنظومة الصحية في الجزائر كثيرا من ظاهرة الأوبئة والأمراض خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي، ما انعكس مباشرة على تردي الوضع الصحي وتراجع النمو الديمغرافي وتدهور الحالة الاجتماعية والاقتصادية على ساكنة الجزائر عامة، يعتبر وباء الكوليرا واحدا من بين هذه الأمراض الفتاكة التي أصابت جميع الفئات الاجتماعية دون استثناء، مما دفع بمسئولي مكاتب الصحة الفرنسية في الجزائر لاتخاذ عدة تدابير وقائية واحترازية ساهمت في التقليل من عدد الإصابات وحماية المستوطنين الفرنسيين وجنود الاحتلال والسكان من خطورته، سنحاول إذن من خلال هذا المقال التاريخي التطرق إلى الخلفيات التاريخية لوباء الكوليرا في الجزائر وانعكاساته الاجتماعية والبشرية على سكان الجزائر وعلى قوات المستعمر الفرنسي أيضا.

1. الخلفية التاريخية لظهور وباء الكوليرا في الجزائر:

لقد تعرض المجتمع الجزائري لمجموعة مختلفة من الأمراض والأوبئة الفتاكة طيلة أربعة قرون كاملة والتي كانت تشكل ثلاثي مربع وقاتل بالنسبة له، الممثلة في المجاعات والكوارث الطبيعية والطاعون والكوليرا، حيث خلفت هذه الأخيرة آثارا جسيمة على حياة الفرد والمجتمع اجتماعيا واقتصاديا وديموغرافيا وصحيا، كما أصبحت هذه الأوبئة والأمراض ظاهرة مزمنة تسببت في تدهور الوضع الصحي والمعاشي للسكان، وهذا ما كان له انعكاس سلبي على البنية الاجتماعية للجزائر خلال بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي، لذلك حاولنا من خلال هذا المقال تتبع الواقع الصحي والديموغرافي ومدى تأثيره بالأوبئة والأمراض المتنقلة ممثلة في وباء الكوليرا في الجزائر، الذي كان دائما ما تترد على المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، ما ساهم في تكبير قدراته الاقتصادية والمادية والبشرية.

باعتبار أن الجزائر قد عانت كثيرا من وطأة مرض جديد لم تعرفه من قبل ألا وهو وباء الكوليرا (Cholera) الذي تسلط على ضفاف منطقة البحر الأبيض المتوسط، قادما من بلاد الهند

والقارة الآسيوية لينتقل بعدها إلى قارة أوروبا وبالتحديد إلى موانئ اسبانيا ثم إلى موانئ دول شمال إفريقيا عام 1831م، أي من موانئ المحيط الهندي إلى موانئ البحر الأحمر والخليج العربي ومنها إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، أين اعتبره الكثيرون بأنه أخطر من وباء الطاعون المرعب (F. ARNOULET, 1989, p.21)، حيث انتقلت عدوى هذا الوباء إلى مدينة الجزائر عن طريق سفينة قادمة من جزر "البليار" (أبو الفداء إسماعيل، 1840، ص. ص. 190-191) (أنظر التعليق رقم 01)، أو الجزائر الشرقية كما سماها المسلمون العرب من قبل نظرا لوقوعها في شرق بلاد الأندلس (يحياوي جمال، 2004، ص. ص. 25-38) (أنظر التعليق رقم 02)، وسفينة أخرى قادمة كذلك من تونس وهذا في نفس السنة أي عام 1831م، حيث تم فرض الحجر الصحي (الكارنتينة أو الأربعينية) (أبو القاسم الزياني، د.ت.، ص. 363) (أنظر التعليق رقم 03)، على كل السفن القادمة بعدها إلى موانئ الجزائر لمدة 21 يوم كامل، هذا بقرار من المكتب الصحي لمدينة الجزائر كما لم يكن يسمح برسو وتوقف السفن في ميناء الجزائر إلا بعد التأكد من حملها لشهادة صحية تؤكد خلو هذه السفن من عدوى وباء الكوليرا (فلة موساوي القشاعي، 2010، ص. 187).

وعلى غرار مدينة الجزائر ظهر وباء الكوليرا في مدينة وهران عام 1831م حيث بعث العقيد "أسوفيك" (ASOUVIC)، هو رئيس مجلس الصحة بمدينة وهران، رسالة إلى أعضاء مجلس الإدارة الصحية بمرسيليا ورد فيها ما يلي: (إن مجلس الصحة العمومية لوهران قد كلفني بإرسال نسخة من المراسلة التي بعثها لي الجنرال بواي (BOYER)، حاكم مقاطعة وهران لاتخاذ الإجراءات الصحية الجديدة فيما يتعلق بوباء الكوليرا...) (القشاعي، 2010، ص. 188).

وفي نفس هذا السياق بالذات بعث الكولونيل "مامو" (MAMOU) هو الرئيس الجديد للمجلس الصحي لوهران برسالة للإدارة الصحية بمرسيليا مفادها هو: (عدم سماح المجلس الصحي لوهران برسو سفينة تجارية قادمة من إنجلترا محملة بمحصول البطاطا والمتوجهة إلى ميناء مالطا، معللا قراره هذا بالتخوف من انتقال وباء الكوليرا إلى وهران بعد انتشارها في إنجلترا) (القشاعي، 2010، ص. 189).

## 2. كيفية تحديد أعراض الكوليرا:

حسب "أرنوله" (F. ARNOULET) فإن أعراض وباء الكوليرا تتمثل في الإسهال الحاد والجفاف السريع الذي سيؤدي حتما إلى هلاك المريض بالكوليرا في ظرف قصير جدا، حيث أثبت

الطبيب "باسيني (PACINI) كذلك عام 1854م أن سبب هذا المرض هو جرثوم أو بكتيريا يعفن ويعدي الجهاز المعوي للمريض، كما بين أيضا الطبيب "جون سنو" (JOHNSNOW) دور المياه المعفنة في نشر العدوى بين الناس، ما يوضح لنا العلاقة الحتمية بين وباء الكوليرا وبين المياه الغير طاهرة كذلك (القشاعي، 2010، ص.190)، أما عند الأتراك فقد أطلق الأطباء على وباء الكوليرا "بمرض الهواء الأصفر" وهذا بسبب تحول لون بشرة الشخص الموبوء إلى الأصفر.

أما عن كيفية تشخيص مرض الكوليرا فقد كان أمرا صعبا بالنسبة للأطباء وللمصابين بهذا الوباء، حيث تشبه أعراضه أعراض الحمى المتردة ما صعب على أطباء القرن 16م و17م و18م تشخيص هذا المرض لوحده، كما أنه كان يجهل عند هؤلاء الأطباء البكتيريا المتسببة في هذا الداء وكان يفسر هذا المرض من خلال أعراض التعب وانتشار التعفن في جسم الإنسان فقط، بسبب عدم تشديد تطبيق إجراءات الحجر الصحي في المدن الداخلية للجزائر خاصة على التجارة البرية عكس ما تم تطبيقه على التجارة البحرية في الموانئ الساحلية، فإن وباء الكوليرا انتشر بكثرة وخلف "مجاعة ديموغرافية رهيبة" (F. ARNOULET, 1998, p. 16).

ومن خلال ما سبق ذكره يمكننا القول أنه منذ عام 1820م قد ترك وباء الطاعون مكانه في الجزائر إلى وباء الكوليرا والتيفوس والحمى البردائية التي أصبحت أمراضا متردة ومستوطنة في منطقة شمال إفريقيا ككل، لكن تبقى منابع هذا الوباء (الكوليرا) ممثلة في الثلاثي التالي وهو: الفقر وسوء التغذية وانعدام شروط النظافة أيضا.

### 3. وباء الكوليرا في الجزائر وبداية مرحلة الانتشار عام (1832م- 1848 م):

لقد سجل شهر جويلية عام 1832م ظهور 232 حالة وباء كوليرا في الجزائر أين عقد المجلس الصحي لمدينة الجزائر جلسة طارئة لمناقشة إجراءات الحجر الصحي للمرضى، حيث خلص هذا المجلس إلى قرار نقل المرضى إلى محجر مدينة مرسيليا الفرنسية وهذا بسبب ضيق محجر "باب عزون" في الجزائر العاصمة، الذي كان قد امتلئ على آخره بالمرضى المصابين أو الموبوتين بوباء الكوليرا (القشاعي، 2010، ص. 193)، هنا يمكننا أن نشير أيضا إلى أن مدينة وهران قد بقت خالية من وباء الكوليرا في هذه السنة من عام 1832م، هذا حسب ما ورد في وثائق الأرشيف

الفرنسي (أرشيف ما وراء البحار)، أين بينت هذه الوثائق أن الحالة الصحية لسكان مدينة وهران كانت جيدة، أن وهران بقيت خالية من وباء الكوليرا (القشاعي، 2010، ص. 193).

وقد اجتاحت وباء الكوليرا مدينة البليدة ثم مدينة معسكر و مستغانم والمرسى الكبير عام 1834م أين راح ضحيته 1457 قتيل في ظرف 20 يوم فقط (القشاعي، 2010، ص.194)، أما مدينة عنابة في الشرق الجزائري فقد تسلط عليها وباء الكوليرا في نفس هذه السنة بالذات وخلف حوالي 850 ضحية في ظرف شهرين فقط، كما ألحق وباء الكوليرا على جيوش المستعمر الفرنسي خسائر بشرية جد معتبرة خاصة بعد مصاحبته لنوع جديد من الحمى وهي "الحمى البردائية" (Fièvres Paludéennes) (Le ch. (FERAUD, 1873, P.343) بسبب كثرة المستنقعات والمياه الراكدة والأوساخ خاصة في فصل الصيف.

وما يدل على سرعة انتشار عدوى وباء الكوليرا في الجزائر خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي، أن الوباء عم جميع مناطق الوطن انطلاقا من المدن الساحلية وصولا إلى المدن الداخلية ثم إلى الجنوب الجزائري، حيث تشير لنا تقارير الصحة الفرنسية بأن مدينة قسنطينة قد مسها وباء الكوليرا عام 1837م مخلفتا حوالي ألف 1000 و 500 ضحية يوميا (L. GUIN, 1873, P.455)، كما تذكر لنا هذه التقارير سواء العسكرية أو المدنية منها إلى التسلسل الكرونولوجي لهذا الوباء إلى غاية عام 1848م، لتبين لنا أن السفن القادمة من الضفة الأوروبية، هي السبب الأول والرئيس في نقل العدوى إلى جميع مناطق الوطن (القشاعي، 2010، ص.197).

#### 4. وباء الكوليرا في الجزائريين مرحلة التراجع والتقدم عام (1851م-1854م):

لقد عرفت الجزائر فترات خالية من وباء الكوليرا بسبب تحسن الوضع الصحي نتيجة الإجراءات الاحترازية المتخذة من طرف السلطات الفرنسية ومكاتب الصحة في الجزائر، انطلاقا من فرض الشهادات الصحية للسفن التجارية القادمة من أوروبا واتخاذ إجراءات الحجر الصحي على جميع الأشخاص والمنتجات المستوردة منذ عام 1851م، إضافة إلى عمليات التطهير والتعقيم المستمر والمتكرر على المحاجر الصحية بمختلف المطهرات كالمح والبخور والعطور، هنا يمكننا للإشارة إلى أن جميع مراسلات القناصل والمبعوثين الدبلوماسيين الفرنسيين إلى الجزائر، قد أثبتت لنا تطبيق هذه الإجراءات المتخذة والتحسين الملحوظ على الحالة الصحية بالجزائر (القشاعي، 2010، ص 201).

ومن بين هذه التقارير نأخذ تقريراً للقنصلية الفرنسية في الجزائر والتي جاء فيها ما يلي:  
(إن الصحة العمومية جيدة في الجزائر، وأحسن دليل على ذلك الشهادات الصحية التي حملتها  
السفن الآتية من موانئ الجزائر) (القشاعي، 2010، ص.201)، إلا أن الأحوال الصحية سرعان ما  
تدهورت بسبب انتشار موجة جديدة من وباء الكوليرا، القادمة من القارة الآسيوية  
(CHOLERAASAITIQUE) والتي اجتاحت مدينة تلمسان في شهر جوان 1851م، ثم انتقلت بعدها  
إلى مدينة وهران (القشاعي، 2010، ص.201).

كما صاحب وباء الكوليرا مرض الجدري والتيفوس والحمى المترددة على مدينة قسنطينة  
عام 1851م، ذلك نتيجة سوء أحوال التغذية وانتشار الفقر والأوساخ، فكان من الحتمي أن تتردد  
كل هذه الأمراض والأوبئة على مدينة قسنطينة وبالتالي يبقى "التلقيح" (Vaccine) هو السلاح  
الوحيد والحل الأخير لمكافحة هذه الأمراض الفتاكة على الواقع الصحي والديموغرافي للجزائر  
(القشاعي، 2010، ص.203).

رغم هذه الأزمة الصحية ونظر للطلب المتزايد على السلع والبضائع الجزائرية في فرنسا وأوروبا  
خاصة مثل التمور والجلود والصوف...الخ، اتخذت السلطات الفرنسية إجراءات استثنائية لتخزين  
هذه البضائع في محجر "كارولين بالفريبول" (Lazaret Caroline De Frioul) (القشاعي، 2010،  
ص.204) ومنها تصدير مختلف المنتجات إلى فرنسا.

أما فيما يخص وباء الكوليرا الذي ضرب مدينة وهران ما بين عام 1851م إلى غاية عام  
1853م فقد تمت محاصرته والقضاء عليه من خلال فرض السلطات الفرنسية لنظام الحجر  
الصحي على كامل الأشخاص المصابين بالوباء، إلى غاية تعافهم منه وهذا ما أكده مسئول الصحة  
بوهران في تاريخ 30 جوان 1852م، من خلال التقرير الإخباري الذي حرره وأرسله إلى مقر مجلس  
الصحة الفرنسية بمرسيليا، يخبرهم فيه بنجاح إجراءات الحجر الصحي ضد وباء الكوليرا في وهران  
والجزائر، هذا بفضل تعزيز المحاجر الصحية التي كانت مستغلة في كل من مدينة مرسيليا ومالطا  
وقرطاجنة أيضاً (القشاعي، 2010، ص.204).

## 5. وباء الكوليرا في الجزائر بين مرحلة الانتكاس والاستقرار عام (1855م-1871م):

إن بقاء الوضع الصحي في حالة استقرار بالجزائر لم يدم طويلا ففي عام 1855م اعتبرت الجزائر بيئة خالية من هذا الوباء، لتنتقل بعدها عدوى الكوليرا من جديد قادمة من ميناء مرسيليا بفرنسا إلى ميناء وهران بالجزائر من خلال ما أثبتتها التقارير الصحية في ميناء المرسى الكبير بوهران عام 1855م (القشاعي، 2010، ص.204)، حيث تضمنت هذه التقارير المراسلات الصحية الفرنسية والمعلومات المتعلقة عن الأوبئة التي ظهرت في الجزائر، خاصة بعد رسو إحدى السفن القادمة من موانئ تونس إلى ميناء عنابة والتي كانت تحمل شهادة صحية مشكوك في أمرها، ليثبت ركاها من بعد بأنهم مصابون بوباء الكوليرا أين تم فرض تدابير الحجر الصحي عليهم مع تعقيم تلك السفينة وكل السلع المحملة بها (القشاعي، 2010، ص.206).

كما أشارت التقارير الفرنسية إلى اجتياح وباء الكوليرا لمستشفى "الداي حسين" بمدينة الجزائر في تاريخ 28 سبتمبر عام 1860م (القشاعي، 2010، ص.206)، ليتم بعدها اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة من طرف السلطات الفرنسية ومكاتب الصحة في الجزائر للحد من انتشار هذا الوباء، حسب بعض الأطباء الفرنسيين فإنه يمكن لمناخ الجزائر أن يحد من انتشار المرض والذي يمتاز حسيم بشروط خاصة تمكنه من الحد من انتشار العديد من الأمراض والأوبئة عكس مناخ فرنسا (القشاعي، 2010، ص.208).

وتشير لنا نفس المراسلة السابقة إلى عودة وباء الكوليرا في المشرق ومنه إلى تونس ثم إلى مدينة قسنطينة عام 1867م، لتعم بعدها العدوى كلا من مدينة تنس والأصنام والبليدة والقليلة وشرشال (LET'TRE DU 24 SEP 1867)، حيث صاحب هذا الوباء كذلك الحمى الصفراء الإسبانية (Fièvre) jaune espagnole عام 1870م، لتطبق السلطات الفرنسية إجراءات الحجر الصحي من جديد في المدن الكبرى خاصة كمدينة الجزائر ووهران وعنابة على جميع السفن القادمة من مملكة اسبانيا (LET'TRE DU 05OCT 1870)، كما قرر الطبيب "مورين" (Meurinne) مدير الصحة بوهران رفع إجراءات الحجر الصحي عن السفن التي استنفذت المدة القانونية للحجر الصحي، أما الطبيب "قروميلي" (Gremilly) مدير الصحة بعنابة فقد قام بفرض إجراءات الحجر الصحي على كل السفن الايطالية التي كانت راسية في ميناء "ستورة" بمدينة

سكيكدة، القادمة من ميناء مدينة جنوة بإيطاليا هذا بسبب انتشار الوباء في الموانئ الإيطالية عام 1873م (LET'TRE DE GREMILLY, 1873).

#### 6. وباء الكوليرا في الجزائر وانعكاساته على الوضع الصحي والديمغرافي خلال مرحلة الاحتلال:

تؤكد لنا الدراسات الحديثة أنه يصعب تحديد الأرقام الحقيقية والمضبوطة عن عدد ضحايا وباء الكوليرا في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال، بسبب تنوع الكوارث الطبيعية من جهة والأمراض والأوبئة المختلفة من جهة أخرى، كالجراد والجفاف والطاعون والتيفوئيد والكوليرا... الخ، لكن أغلب هذه الدراسات تجتمع حول شيء واحد ألا وهو الخسائر البشرية الضخمة لهذه الأمراض والأوبئة، حيث أدى وباء الكوليرا إلى ارتفاع نسبة الوفيات في السنوات التالية ما بين 1832م-1834م-1836م، بنسبة تتراوح ما بين 50% و70% وهي الأرقام المسجلة على مستوى المراكز الصحية الفرنسية والسجون والثكنات خلال هذه السنوات المتتالية (M. KADDACHE, 1989. p.p. 204, 200).

وعلى غرار المدن الكبرى في الجزائر عانت القرى والأرياف والمداشر كثيرا من وباء الكوليرا وهذا من خلال الانقراض الديمغرافي لسكانها، لكن يستحيل تقويم هذا التراجع الديمغرافي بدقة نظرا لتذبذب الأرقام ولندرة المعطيات والإحصائيات الحقيقية التي كتبت بخصوصها، حيث تشير لنا بعض التقارير الفرنسية حول وباء الكوليرا إلى ما عانت منه مدينة عنابة عام 1833م، حيث ارتفعت نسبة الوفيات فيها لتصل إلى 09.05 لمجموع 100 نسمة، ثم تراوحت ما بين 08.72 عام 1834م، لتصل إلى 08.75 عام 1835م، لتتخفض هذه النسبة إلى 07.12 عام 1836م، لتستقر حول 07.25 عام 1837م، ثم تناقصت نسبة الوفيات نتيجة تراجع خطر وباء الكوليرا والإجراءات الاحترازية التي قامت بها السلطات الفرنسية لتصل عام 1845م إلى 02.82 (ROZET et CARETTE, 1980, p. 89).

وحسب التقارير الفرنسية يظهر لنا أن أكثر نسبة لضحايا وباء الكوليرا في الجزائر خلال عام 1835م سجلت عند فئة اليهود، بوفاة 437 ضحية ثم تلمهم فئة الجزائريين بوفاة 287 ضحية، ثم تلمهم فئة المستوطنين الأوروبيين بوفاة 164 ضحية، مما يبين لنا أن فئتي اليهود والمسلمين هم من تضرروا كثيرا بوباء الكوليرا (القشاعي، 2010، ص. 486).

يمكننا التعرف على خسائر البشرية لوباء الكوليرا في الجزائر ما بين عام 1843م-1845م من خلال التقريرين اللذين وضعهما كل من الطبيب الفرنسي "روزي وكاريت"، حيث بين التقرير أن ارتفاع نسبة الوفيات انحصر بالدرجة أولى في المدن الكبرى والمناطق الساحلية في الجزائر، مقارنة بالمناطق الداخلية التي كانت أقل تضررا في هذه السنوات، مع استثناء منطقة الحروش والبليدة التي كانت تحيط بهم مستنقعات كبيرة، كانت بمثابة الخزان لوباء الكوليرا مع مصاحبة هذا المرض لمرض الحمى بشتى أنواعها (القشاعي، 2010، ص.488)..

أما مدينة وهران فقد عرفت عام 1849م-1850م كارثة ديمغرافية حقيقية بوفاة حوالي 209 ضحية يوميا، كذلك سجلت كل من مدينة سكيكدة وسطيف وبوسعادة وبسكرة عددا مرتفعا من الوفيات بسبب هذا الوباء، لكن لا توجد أرقام ثابتة تعكس حقيقة هذا النزيف الديمغرافي، على غرار مدينة الجزائر التي تدل فيها الإحصائيات الرقمية على وفاة 33% من الأطفال تراوحت أعمارهم ما بين 01 سنة و15 سنة، ما بين 1831م-1847م ووصلت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر إلى 06.14% عام 1850م وإلى نسبة 04.36% عام 1851م وهو العام الذي سماه الناس بعام الكوليرا (العنتري، 1974، ص.227).

وبداية من عام 1843م أجرت فرنسا أول تعداد سكاني شمل الجزائريين والأوروبيين من مستوطنين بالجزائر، حيث تم إحصاء الجزائريين من المقيمين بالمدن والفحوص وهي الطبقة المعروفة بسكان الحضر في العهد العثماني، أما سكان المناطق الريفية فلم يخضعوا لهذا التعداد وهذا بسبب نفوهم من هذا الإحصائي الناتج عن العادات والأعراف الخاطئة، هذا ما يحول دائما كعائق لتقديم نتائج موضوعية يمكننا من معرفة عدد الوفيات بسبب وباء الكوليرا في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال (BOYER, 1960, p. 253).

أما عملية التعداد الشمولي لسكان الجزائر التي انطلقت من سكان الحواضر إلى سكان القرى والأرياف عام 1856م، وفقا لمرسوم 20 ديسمبر 1856م الذي خضع له كل سكان الجزائر سواء المقيمين بالمناطق المدينة أم العسكرية أيضا، حيث أصبحت عملية إحصاء السكان تقوم كل خمس سنوات من طرف المستعمر الفرنسي (القشاعي، 2010، ص. ص. 491-492)، كما قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بإجراء تعداد خماسي لسكان الجزائر عامي 1856م و1861م.

خاتمة:

من خلال المقاربة التاريخية التي قمنا بها حول هذا الموضوع يمكننا أن نستنتج ما يلي:

- حلول وباء الكوليرا محل وباء الطاعون في الجزائر منذ بداية مرحلة الاحتلال الفرنسي عام 1830م، مع تكرار هجماته على المدن الكبرى كالجزائر ووهران وقسنطينة وعنابة وبجاية وتلمسان... الخ، خاصة المدن الساحلية التي تحتوى على موانئ لرسو السفن التجارية القادمة من الضفة الأوروبية والتي كانت عامل لنقل هذا الوباء.
- إن فرض نظام الحجر الصحي (الكارنتينة) في الجزائر، قد مكن مكاتب الصحة الفرنسية من التحكم في انتشار هذا الوباء والحد من أضراره الصحية والديمغرافية على المجتمع الجزائري وعلى الجيش الفرنسي أيضا.
- إن عدم تطبيق السلطات الاستعمارية الفرنسية لتصريح العبور الصحي على التجارة الداخلية والبرية في الجزائر، مثل ما فعلته مع التجارة البحرية والخارجية قد اعتبر عاملا رئيسيا ومهما في نقل وانتشار العدوى إلى المدن الداخلية، خاصة في المناطق الحدودية منها كتونس والمغرب.
- إن قوافل الحجاج القادمين من مدينة مكة بالحجاز ومنطقة المشرق العربي عامة، لطالما حملت معها مختلف الأمراض والأوبئة إلى الجزائر كالكوليرا خلال فترة بداية الاحتلال الفرنسي.
- إن ارتباط أغلب هذه الأمراض والأوبئة بالمجاعات والفقر وسوء التغذية وعدم احترام قواعد النظافة، قد كان عاملا رئيسيا ومساهما أيضا في انتشار هذا الوباء، ما سبب تراجع ديمغرافيا وانهيارا صحيا رهيبا تختلف أرقامه حسب مختلف المصادر الفرنسية والجزائرية التي عاصرت فترة الاحتلال الفرنسي.
- لقد ساهمت السلطات الفرنسية من خلال تدعيمها للهياكل الصحية في الجزائر من مستشفيات ومحاجر للقضاء على وباء الكوليرا، رغم أنه أغلب هذه المراكز قد كانت مخصصة للجيش الفرنسي وللأسلاك العسكرية والمدنية بالدرجة الأولى.
- يعتبر تنظيم السلطات الفرنسية لحمات تلقيحية مجانية ضد وباء الكوليرا أمرا هاما في محاصرة الوباء والقضاء عليه، لكن رفض أغلب سكان الجزائر لهذا الإجراء الوقائي، واعتباره عملا عدوانيا بسبب انعدام الثقة بين المريض الجزائري والطبيب الفرنسي وذلك نتيجة

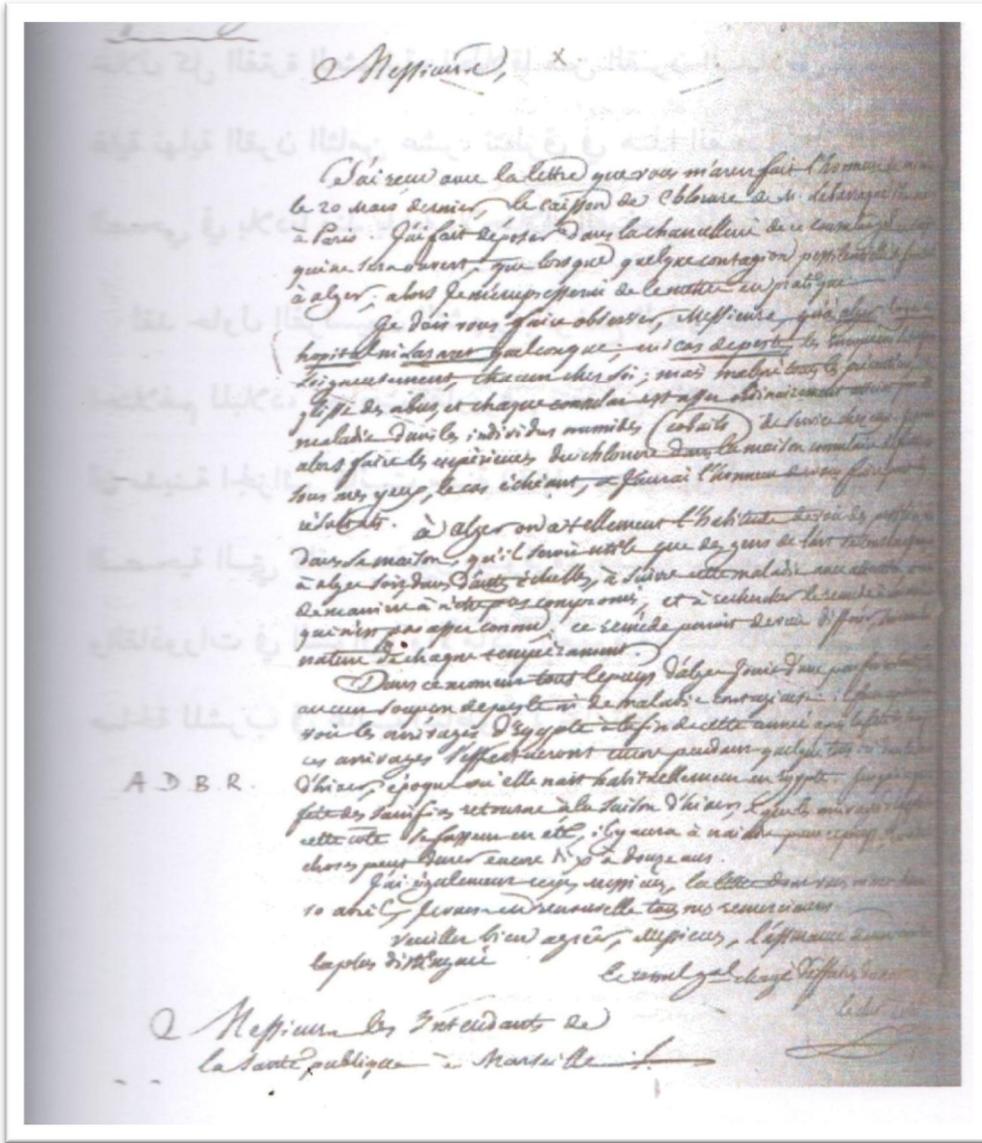
الخلفية التاريخية للاستعمار الفرنسي، مقابل قبول العديد منهم للألم كرامة وعزة في النفس والشرف هذا ما ساهم أيضا في تدهور الوضع الصحي وحدوث تراجع ديمغرافي كبير في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال.

- إن ما يمكننا ملاحظته واستنتاجه في نهاية هذا الموضوع هو تفضيل الجزائريين للطب البديل والتقليدي على الطب الحديث خلال فترة الاحتلال مثل: التداوي بالأعشاب والكي والتبخر والتبرك بالأضرحة ومياه العيون وزيارة المرابطين والأولياء الصالحين طلبا للشفاء من هذه الأمراض القاتلة.
- إن اعتمادنا لكل الأرقام التقريبية التي قدمت في كل تعداد بشري من طرف قوات الاحتلال الفرنسي، تحول دون تمكن الباحث من العثور على أرقام تعكس حقيقة التأثير الوضع الصحي الرديء والمتدهور ديمغرافيا إلى غاية عام 1866م، أين بدأ الإطار الصحي يتحسن تدريجيا، بتراجع الأوبئة والمجاعات، حيث حل محل هذا الانقطاع الديمغرافي انتعاش ديمغرافي نسبي بسبب تطور المعارف الطبية وتحسن مستوى المعيشة في أوساط المعمرين، رغم ذلك إلا أن الجزائريين ظلوا يعانون من الحرمان والفقر وتدهور الأحوال الصحية خلال مرحلة الاحتلال.
- لقد لاحظت سلطات الاحتلال الفرنسي أن أبسط الهياكل الصحية، لم تكن موجودة في الجزائر باستثناء الملاجئ التي كانت تفتقر إلى أدنى الخدمات والمرافق، الأمر الذي فرض عليها تطبيق نظام صحي لصالح الجيوش الفرنسية وللمعمرين الأوروبيين في الأساس، فكانت التنظيمات الفرنسية الموجودة في الجزائر مماثلة لما هو معمول به في فرنسا، فانتشرت بعدها المكاتب الصحية والمحاجر والمستشفيات هذا ما ساهم في تراجع حدة الأمراض والأوبئة كالكوليرا في الجزائر.

الملاحق:

الملحق 1:

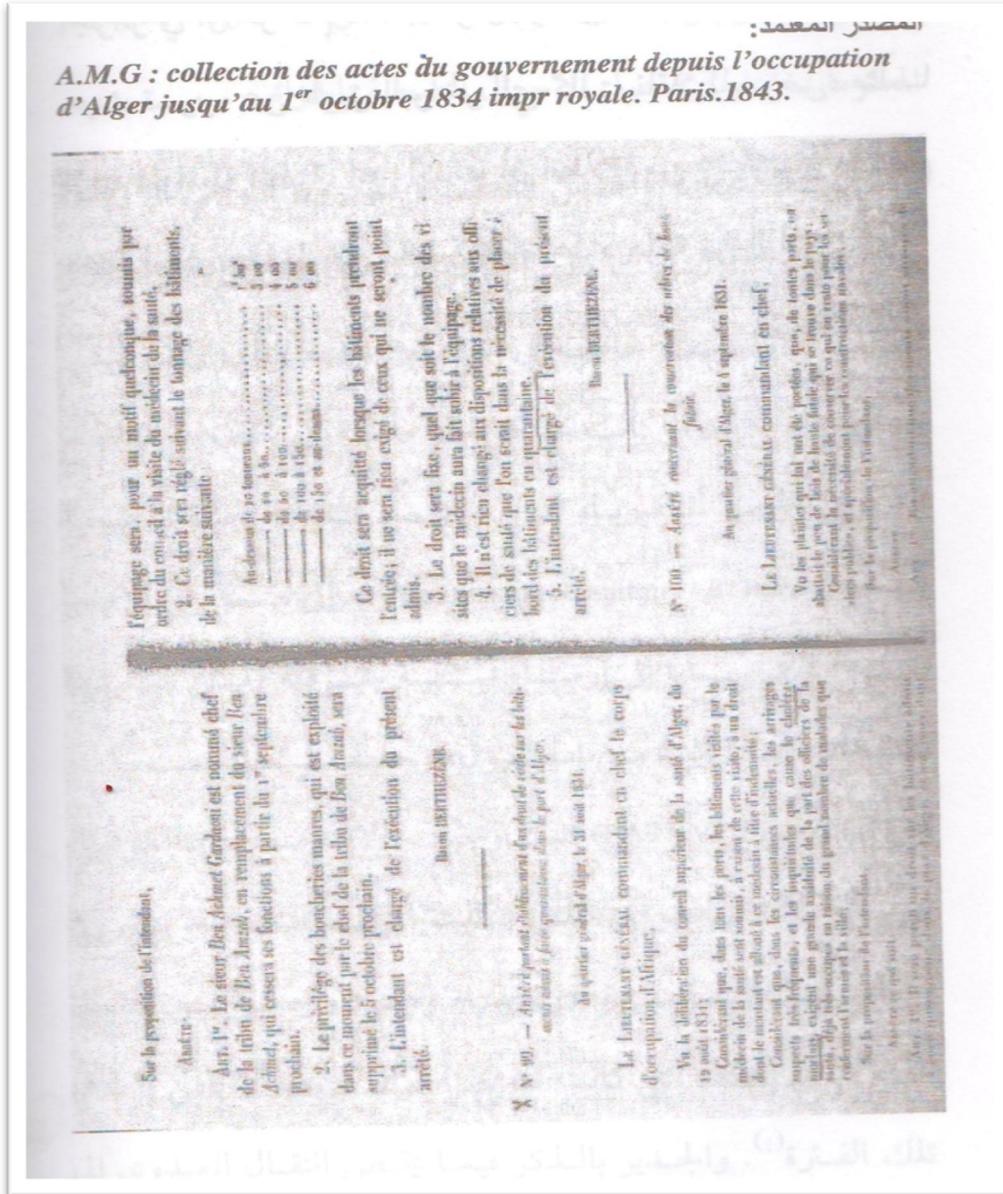
رسالة القنصل ديفال إلى الإدارة الصحية بمارسيليا يشير فيها إلى عدم وجود محاجر ومستشفيات بمدينة الجزائر.



المصدر: فلة موساوي القشاعي، (2010)، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1871م-1518م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 02، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، ص 172، نقلا عن أرشيف (Archives d'Outre-Mer a Aix-En Provence) أو "أرشيف ما رواء البحار" بفرنسا.

الملحق 2:

وثيقة تتضمن مرسوم فرض مبالغ مالية على السفن الخاضعة للحجر الصحي بميناء الجزائر(1).



المصدر: فلة موساوي القشاعي، (2010)، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518م-1871م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 02، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، ص 200، نقلا عن أرشيف (Archives d'Outre-Mer a Aix-En Provence) أو "أرشيف ما رواء البحار" بفرنسا.

الملحق 3:

وثيقة تبين تطبيق الحجر الصحي على السفن الجزائرية بميناء مرسيليا مع فرض الشهادات الصحية (1).

ECHELLES.	Bâtimens, Effets, etc. sujets à la quarantaine.	PATENTE		Frais de port
		soit, Nombre de jours.	soit, quand on touche à terre 3. 2. 1.	
Constantinople.	Bâtimens avec marchandises.	28	30	30
	Marchandises.	38	40	40
	Passagers.	28	30	30
	Bâtimens avec denrées sans pacotilles.	18	20	20
	Passagers.	18	20	20
	Bâtimens de denrées avec pacotilles. Les pacotilles. Passagers avec pacotilles.	23 33 23	28 40 28	30 40 30
Barbarie jusques et compris Alger.	Bâtimens avec marchandises.	28	30	30
	Marchandises.	38	40	40
	Passagers.	28	30	30
	Bâtimens avec denrées sans pacotilles.	18	20	20
	Passagers.	18	20	20
	Bâtimens de denrées avec pacotilles. Les Pacotilles. Passagers avec pacotilles.	23 33 23	28 40 28	30 40 30
Echelles de Le- vant et Royaume de Maroc, depuis Alger tirant à l'Ouest.	Bâtimens avec marchandises.	20	25	30
	Marchandises.	30	35	40
	Passagers.	20	25	30
	Bâtimens avec denrées sans pacotilles.	18	20	20
	Passagers.	18	20	20
	Bâtimens de denrées avec pacotilles. Les pacotilles. Passagers avec pacotilles.	20 30 20	25 35 25	30 40 30

مصدر الوثيقة: المرسوم الصحي المفروض على السفن الجزائرية، وفقا للشهادات الصحية  
A.C.H.M. تجارية بمرسيليا.

المصدر: فلة موساوي القشاعي، (2010)، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي (1518م-1871م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر 02، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، الجزائر، ص 186، نقلا عن أرشيف (Archives d'Outre-Mer a Aix-En Provence) أو "أرشيف ما رواء البحار" بفرنسا.

الهوامش والتعليقات:

(1) جزر البليار: لقد أطلق اليونانيون اسم "بليارس" Baliares على هذه الجزر وهو مشتق من فعل رمى وألقى وذلك بسبب خبرة سكانها في رماية الحجارة بالقلاع قديما، وهناك من ينسبها إلى بعض سكان قبيلة "بلاري" التي كانت تعيش بجزر سردانية التي هاجرت إلى المنطقة من بعد في عصر الحجري الحديث، وأطلق الفينيقيون على جزر البليار اسم "كولمبا" Columba بينما أطلق

اليونانيون على أكبر جزيرتين من هذه الجزر اسم "جزر العراة" Gymnesiae Insulae نظرا لأن سكانها كانوا لا يرتدون إلا قطعة قصيرة من جلد الماعز في فصل الصيف، أما العرب فقط أطلقوا عليها اسم "الجزائر الشرقية" و"جزائر شرق الأندلس" نظرا لوقوعها في شرق الأندلس، قد عرب المسلمون الأسماء اللاتينية لجزر البليار فظهر لنا اسم جزيرة "ميورقة" وجزيرة "منورقة" وجزيرة "يابسة" المشتقة من جزيرة Ibiza وهذا حسب ما جاء في المصادر الإسلامية سواء في صورة الأرض لابن حوقل أو تقويم البلدان لياقوت الحموي أو في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، أو في كتاب تاريخ خليفة ابن خياط، أو في كتاب مقدمة ابن خلدون، (أبو الفداء، 1840، ص.ص. 190-191؛ الحموي ابن عبد الله، 1990، ص. 246-247؛ ابن حوقل النصيبي، 1992، ص.ص. 110-184؛ ابن خلدون، 2004، ص. 112؛ المراكشي، 1949، ص. 246؛ المراكشي، 1985، ص. 302؛ صالح سالم، 1984، ص.ص. 15-20).

(2) بلاد الأندلس: أو جزيرة ايبيريا وهي البلاد الأوروبية التي فتحها المسلمون في شمال غرب أوروبا عام 711م على يد طارق ابن زياد في عهد حكم الدولة الأموية ضد مملكة القوط الغربيين، عرفت ازدهار حضاريا وثقافيا كبيرا خلال الفتح الإسلامي لها لكن بعد رفع شعار حروب الإسترداد بدأت إمارات بنو الأحمر تسقط في أيدي قوات مملكة قشتالة وآراغون منذ عام 1085م بسقوط طليطلة ثم سقوط سرقسطة في عام 1112م ثم طرطوشة ولاردة في عام 1148م ثم أشبونة وميورقة في عام 1229م، ثم أبدة وقرطبة 1233م-1236م وبلنسية في عام 1238م وشاطبة ودانية عام 1240م ومرسية عام 1242م، وجيان عام 1246م واشبيلية عام 1248م وبعد الزواج السياسي بين ملكة قشتالة وملك آراغون فرديناند الأول وايزابيلا عام 1469م، ليقودا حربا ضد مسلمي غرناطة التي سقطت عام 1492م، (يحياوي جمال، 2004، ص.ص. 25-38).

(3) الكارنتينية أو الأربينية: وهي تطبيق إجراءات الحجر الصحي وتعني عزل المريض بالوباء مدة تمتد من 20 إلى 40 يوم كامل في مكان معين، مخافة انتقال العدوى إلى غيره من الأشخاص وظهر تطبيق الأربينية أولا عند الأوروبيين منذ نهاية القرن 14 للميلاد، ثم انتقل الأمر إلى المسلمين أين اختلف الفقهاء في موضوع جوازها من عدمه واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم، تحدث الزباني في كتابه "الترجمانة الكبرى" عن تطبيقه للحجر الصحي أثناء عودته من تونس عام 1794م وهي الرحلة الثالثة له فذكر أن السفينة التي كانت تقله مع مجموعة من الأشخاص لم يكن يسمح لها بالرسو في ميناء تونس إلا بعد قضائه العشرين يوما كاملا في الحجر الصحي، هنا لم يتردد الزباني في اعتبار أن هذا الإجراء مخالف إلى تعاليم الشريعة الإسلامية بقوله: (بعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى الكارنتينية الشنعاء المرفوضة عرفا وشرعا...بقصد بدعة الكارنتينية التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعها)، (الزباني أبو القاسم، 1991، دن، ص. 363).

### قائمة المصادر والمراجع:

1. بن محمد بن عمر أبو الفداء، إسماعيل، (1840)، تقويم البلدان، باريس،
2. الحموي، ابن عبد الله، (1990)، معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، م 05، دار الكتب العلمية، بيروت،
3. ابن حوقل النصيبي، أبي القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي، (1992)، صورة الأرض، ج 01، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،
4. ابن خلدون ولي الدين عبد الرحمان ابن محمد، (2004)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط01، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب للنشر، دمشق، سوريا،
5. المراكشي، عبد الواحد، (1949)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط 01، مطبعة الاستقامة، مصر،
6. المراكشي، عبد الواحد، (1985)، تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط 02، دار طيبة للنشر، المملكة العربية السعودية،
7. صالح سالم، (1984)، سيالم، جزر الأندلس المنسية "التاريخ الإسلامي لجزر البليار" (807م-1287)، ط 01، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،
8. يحيواي جمال، (2004)، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين (1492م-1610م)، دار هومة للنشر، الجزائر.
9. بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزباني أبو القاسم، (1991)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا (1147هـ-1249هـ/1734م-1833م)، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، ط 02، درا المعرفة للنشر، الرباط، المغرب.

10. F. ARNOULET, A propos des Etudes récentes sur les problèmes de Sante dans les provinces Ottomanes Méditerranéennes, (XVII et XIX siècles, In Actes du VI Symposium International d'Etudes Ottomanes.
11. A.D.B.R: Intendance Saniter; Patentes nettes obligatoires.
12. A.D.B.R: (22/05/1831), Série 200E-455: Correspondance du président du Conseil de Sante d'Oran; Mr. Assaouvic adressée a I.S.M.
13. A.D.B.R: (03/12/1831), Lettre du président du Conseil de Sante d'Oran Mr MAMOU a I.S.M.
14. A.D.B.R:(1824/1849), Serie 200 E, 973: Cholera.
15. F. ARNOULET, (1998), Epidémiologie du bassin Méditerranéen au XVII et XIX siècles, In A.H.R.F.O.S. N 17-18 Sep.
16. A.D.B.R: I.S.M, Le Lazaret de Bab Azzoun ne peut recevoir qu' un nombre determine de Quarantenaies.
17. Lettre du (12 sep 1832): La Sante est bonne a Oran.
18. I.S.M: Cholera a Mers El Kebir, (18-08-1834).
19. L. CH. FERAUD, (1873), Documents pour servir à L'histoire de Bône, In R.A.N. N 17, p.343.
20. L. GUIN, (1873), Interprète militaire, Notice sur la Famille des ROBRINI De Cherchell, In R.A.N, p. 455.
21. A.D.B.R:(1848), Correspondance du 02-03, adressée a I.I.S.M, Sante publique satisfaisante a Oran et ses environs.
22. A.D.B.R: Correspondance Consulaire: Quarantenaies imposées aux batx venant d'Alger, Purifications aux Lazarets.
23. LETTER Du 14 Juin 1851 a Oran.
24. A.D.B.R:(16/08/1851), Serie 200 E 470: Bulletin Sanitaire de GIBRALTAR: Les provenances de L'Algérie ne seront plus admises.
25. Série 200 E-457,(28/08/1856), Correspondance des Capitaines de Sante de Bone au Directeur de la Marseille,Mesures de purification signe RENNUCOLY, DR DE Sante Bne.
26. Lettre du service sanitaire du port de STORA N 459 en date du (26 sep 1865), adressée au Directeur de la sante de Marseille.
27. Lettre du (24 sep 1867): Retour du Cholera.
28. Lettre du (05 Oct 1870): a I .S.M.
29. Lettre de GREMILLY en date du ( 10-07-1873), I.S.M; Cholera en Italie.
30. M. KADDACHE , DJ. SARI, (1989), L'Algérie dans L'Histoire. O.P.U. Alger.
31. ROZET et CARETTE, (1980), Algérie, Ed. Bouslama, Tunis.
32. العنتري، محمد الصالح.(1974). مجاعات قسنطينة. تحقيق وتقديم رايح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
33. BOYER,(Pierre), (1960), L'Evolution de l' Algérie Médiane de 1830 a 1956 Libr, D'Amérique et d'Orient, Adrien Maisonneuve, Paris.